

## نقش في الحجر

### 1- البيت

لا تزال صورة الضوء الأول مرسومة بخيوط الدفء بين أضلعي؛ فشمس بيروت شمسها، لا تتبدل. كنتُ بيتاً متواضعاً بين الأزقة والأدراج المديدة، أطلّ على البحر إذا شاءت العين أن تستحضره في الأفق. بين جدرانٍ ونوافذٍ مشرعة، حُفظ نور النهار ونور العلم معاً، وحُفظ صدَى خطواتٍ رسمت في خرائط لمستقبلٍ لم أكن أدرك مداه.

أويثُ آل النقاش سنين طويلة، فعرفتُ منهم الحبّ والشغف. كانوا يتحلّقون حول المائدة في صحنِي، ثم يمتدّ المساء بأحاديث الكبار، ويترك الصبيان وأحلامهم تتكوّن في زواياي. ألفتُ فطنة أصغرهم، واسمه كان مارون، فكنتُ أصغي إلى صوته الرئان كأنني أختبر به اتساعي. أحببته حباً خاصاً فريداً يختلف عن حبي لغيره من أسرته.

كبير مارون، وتعلّم التجارة عن أبيه، فأتقن الرحيل كما أتقن العودة. لم يكن غيابُه يطول، وإن طال عاد محمّلاً بصورٍ وحكاياتٍ عن بلاد بعيدة، حتى أكاد أنسى أنه قد غاب. أنا البيت الذي في حجري دونتُ نشأة مارون النقاش المبدع، وفي صمتي صقلتُ صداه: فصاحةً وبيانا، وأشعاراً وأحاناً كانت تتردّد في فضائي، وكلماتٍ بالفرنسية والتركية والإيطالية تتعانق دون تنافر.

لا يخفى أنّه قد شاطرني حبيّ له، فهو لم يرني مأوى من حرّ الصيف وبرد الشتاء فحسب؛ كان ينظر إليّ كأنني شريكٌ في حلمه. يطيل التأمّل في زواياي وصحن داري وسقفي، وكأنه يبحث عمّا يتجاوز الحجر والخشب. كأنّ البحر يصفو في عينيه كلما عاد من سفر، فيبحر فيه بفكره ومخيّلاته، ثم يعود إليّ بفكرةٍ أثقل من أمتعته وأبقى.

### 2- المسرح

عاد، وفي عودته تغبّر إيقاعي. دبّ صخب لم أعرفه من قبل في رحمي، فانتسعت أركانِي كأنني أتهيأ لولادة أخرى. لم يكن ألم المخاض عسيراً، بل نعيماً سلساً؛ أنست من الولادة فجراً يتسرّب إلى شقوقِي ببطء، يسع كل ما فكر فيه وتكلّم عنه مارون. فصرت بين الحين والآخر أكبر شيئاً فشيئاً، وصرت أنا المسرح.

في ليلةٍ أنيسة، اجتمع النقاشون كما اعتادوا، وكانت العيون هذه المرّة ليست بعيون سمرٍ عابر. كانت مترقبة لما حمّله مارون من إيطاليا. أصغت الأذان بلهفة، وانتسعت العيون، حتى شعرت بأنفاسهم تصعد إلى كتفِي وتهبط في جوفي تلهّفاً.

"وها أنا متقدم دونكم إلى قُدّام، محتملاً فدء عنكم إيمان الملام، مقدّماً لهؤلاء الأسياد المعتبرين، أصحاب الإدراك الموقرين، ذوي المعرفة الفائقة، والأذهان الفريدة الرائقة، الذين هم عين المتميزين بهذا العصر، وتاج الألباء والنجباء بهذا القطر، ومبرزاً لهم مرسحاً أدبياً وذهباً إفرنجياً مسبوگاً عربياً." \*أفاض مارون بلسانه الطلق الفصيح عندها وأطال حديثاً شيقاً عن "المرسح" و"الأوبرا"، وعن فنّ يرى فيه تهذيباً للنفس قبل أن يكون تسلية.

غرّضت المسرحية الأولى على أرضي، ارتجفت الأصوات، واتقدت الأطراف، واحمّرت الوجنات ببراءة الدهشة وأولى المحاولات والتجربة. رأيتُ الحياة تُشخّص أمامي، كما تُرى وتُعاش. على ضوء الكاز والشموع المنثورة، حُفرت فيّ تلك اللحظة: أول مسرحية معرّبة، وأول خطوة نحو فنّ سيبحث له عن موطنٍ قدم في هذه المدينة، فكنت المسرح الأول في كلّ العالم العربي.

كبر حلم مارون، وشاء أن أكبر معه. نُصبت خشبة في فنائي، ومدّت ستارة مهيبية، وتعلّقت أضواء زانت خاصرتي. صرّث ماوى للفنون الشعرية المهذبّة، وللحركة الراقصة التي تبعث البهجة في الأرواح. توالّت الليالي، وبدأ الناس يرتادونني: أعيان بيروت، والمهتمّون بالفنون، والمتحفّظون الذين جاءوا ليروا بأعينهم ما يُقال عن فن النقاش الإفرنجي العربي.

كان الصّوت يسبق الصورة أحياناً، فتتبعثر الضحكات في أرجائي قبل أن تستقرّ. وكانت النساء في المطبخ يُعددن شتّى أنواع العصائر والحلوى، فأسلو بمنظرهنّ وهنّ يختلسن النّظر إلى ما وراء الجدران لإشباع شهوة فضولهن بأصوات "المشخصين" وأزيائهم التي كنّ قد ساعدن في تطريزها وتجميلها قبيل العرض. وهكذا صرّث مكاناً تتعلّم فيه المدينة أن ترى نفسها والعالم على خشبة متواضعة في صدري..

### 3- الكنيسة

جاء يومٌ سافر فيه مارون إلى طرطوس، تاركاً خلفه خشبةً كنتُ أناظرها وتُناظرني بحنينٍ دفين. خفّ الإيقاع الذي ألفتّه، وصار الصمت أثقل من التصفيق، كأنّ الهواء نفسه يتهَيّب الغياب. ثم بلغني خبر إصابته بحمى شديدة، فكتب موصياً إلى أهله بي: أن يرفقوا بقطعه الفنية، ببيته، بمسرحه الذي أحبّ وحلّق بحلمه، وأن يندروني وقفاً. يوماً أدركتُ أن الإنسان قد يرحل، لكنّ الفكرة التي أضاءها لا تنطفئ، بل تبحث لها عن هيكلٍ آخر تسكنه.

وتبدّلت هيئتي مجدداً. اختفت الخشبة، وارتفع المذبح في هيكلي الأبيض. أُزيلت الأنوار التي كانت تلاحق الوجوه، وزُرعت الشموع في أركاني كنجومٍ صغيرة تعرف طريقها في العتمة. اعتلى صوت التراتيل، وحلّ حفيف الشجر وترنيمّة العصفير مكان موسيقاه، غير أنّ صفاءه وانسيابه لم يختلفا. صرّث أنا الكنيسة. لم تكن الخشبة بعيدة عن المذبح، ولا كان المذبح غريباً عنها؛ فكلاهما يشهد للقلب ما يفيض به الكيان. كان وقوف العابرين يشبه تصفيقاً خافتاً، وكانت دموع الراكعين امتداداً لذلك الضوء الذي كان يشعله مارون في ليالي العرض.

لم أفقد هويتي. الذاكرة لا تُنتزع من الحجر، لأنها إن نُزعت تفتّت الحجر نفسه. تاريخي يلهج به العارفون، ويشعر بوقاره الغافلون. كان مارون جزءاً من كياني، ولا يزال. اسمه منقوش على جبّتي كما يُنقش الرجاء في موضع لا يُمحي: «في هذا المكان عُرضت أول مسرحية لرائد المسرح اللبناني والعربي مارون النقاش». من هنا نهضت الفكرة، وتعلّم جيلٌ أن الفن رسالة تُحمل، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب عادت إليه مطمئنة. وحين يهدأ صخب المدينة بعد عشرات السنين، أمتلئ سكينّة. أعرف أنني عشت أكثر من حياة: مكاناً اشتعل بالأصوات، وموضعاً تعمّد في الصمت. لكنني في الحالتين كنتُ بيتاً للبحث، وملاذاً للروح المتعبة.

في يومٍ من الأيام، زارتنى فتاةٌ ينازه عمرها العشرين. على رأسها غطاء شعر أحمر، وفي يدها دفتر باللون ذاته، كأنها تحمل سؤالاً لا يريد أن يشيخ. مرّت بكفّها على جدارني، وأغمضت جفونها طويلاً، كأنها تُصغي... عندها أدركتُ أنني ما زلت أتكلّم، وأن الجدران، إذا حُفظت ذاكرتها، لا تصمت ولا تندثر، تظلّ نقشٌ في الحجر.

- من خطبة مارون النقاش قبل عرض أول مسرحية له